

الإيمان بالقدر وأثره في تحقيق التوازن النفسي
دراسة عقديّة تحليلية نقدية في ضوء بعض المفاهيم النفسية المعاصرة
د. هنادي عيسى عبدالمحمود*

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى بيان أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي من منظور عقدي، وتقويم بعض القضايا المتصلة بالنفس والتعامل مع الابتلاء في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة. واعتمد البحث على المنهج الاستقرائي في جمع النصوص الشرعية وأقوال العلماء المتعلقة بالإيمان بالقدر، والمنهج التحليلي في بيان آثاره النفسية، والمنهج النقدي المقارن في بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين بعض المفاهيم النفسية المعاصرة والتصور الإسلامي، وتقويمها في ضوء أصول العقيدة الإسلامية.

وتوصل البحث إلى أن الإيمان بالقدر يمثل أحد أهم الأسس العقديّة في بناء الشخصية المؤمنة، وتحقيق الطمأنينة النفسية من خلال ترسيخ معاني التوكل، والرضا، والصبر، وحسن الظن بالله تعالى، كما بين أن كثيرًا من المعاني التي تعالج بها النفس آثار الابتلاء والضغوط لها أصول راسخة في الكتاب والسنة وكلام أئمة أهل السنة، مع بقاء الوحي مرجعًا حاكمًا في تفسير الإنسان وتحقيق توازنه النفسي.

الكلمات المفتاحية: الإيمان بالقدر، التوازن النفسي، العقيدة الإسلامية،

الفكر النفسي المعاصر، الصحة النفسية، أهل السنة والجماعة.

* أستاذ المشارك بجامعة البحر الأحمر - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

Abstract:

Title: Faith in Divine Decree and Its Impact on Achieving Psychological Balance: An Islamic Theological, Analytical, and Critical Study in Light of Selected Contemporary Psychological Concepts

This research aims to elucidate the impact of faith in divine decree (*al-Qadar*) on achieving psychological balance from an Islamic theological perspective, and to critically evaluate certain issues related to the human psyche and the ways of dealing with trials in light of the creed of Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah. The study adopts the inductive method to collect the relevant revealed texts and statements of scholars concerning faith in divine decree; the analytical method to examine its psychological effects; and the critical-comparative method to identify points of agreement and disagreement between certain contemporary psychological concepts and the Islamic conception, and to evaluate them in light of the principles of Islamic creed.

The research concludes that faith in divine decree constitutes one of the most important theological foundations for developing the believing personality and achieving psychological tranquility, through strengthening the meanings of reliance upon Allah (*tawakkul*), contentment (*rida*), patience (*sabr*), and having a good opinion of Allah, Exalted is He. It also demonstrates that many of the meanings and approaches through which the psyche deals with the effects of trials and psychological pressures have well-established foundations in the Qur'an, the Sunnah, and the writings of the leading scholars of Ahl al-Sunnah, while revelation remains the authoritative reference for understanding the human being and achieving psychological balance.

Keywords: Faith in Divine Decree, Psychological Balance, Islamic Creed, Contemporary Psychological Thought, Mental Health, Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ عظيم من أركان الإيمان، وأصلٌ من أصول الاعتقاد التي لا يكتمل إيمان العبد إلا بها، وقد أولاه القرآن الكريم والسنة النبوية عناية بالغة؛ لما يترتب عليه من آثار إيمانية وسلوكية ونفسية عميقة في حياة المسلم. فالإيمان بالقدر ليس قضية غيبية مجردة، ولا مسألة كلامية نظرية، وإنما هو أصل عقدي يوجه نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والإنسان، ويؤثر في تفسيره للأحداث، وموقفه من النعم والمحن، والنجاح والإخفاق، والصحة والمرض، والحياة والموت.

وقد شهد العصر الحديث اهتمامًا متزايدًا بدراسة الصحة النفسية، وسبل تحقيق التوازن النفسي، وتنوعت المعالجات المعاصرة لمواجهة القلق والضغوط والابتلاءات. ومع أهمية العناية بهذه القضايا، فإن الدراسة العقيدة تنطلق من أن صلاح النفس لا ينفصل عن صلاح الاعتقاد، وأن الإيمان بالله تعالى وبقدره، وما يترتب عليه من التوكل والرضا والصبر وحسن الظن بالله يمثل أساسًا أصيلًا في بناء التوازن النفسي.

من هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة؛ لتتناول أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي، من خلال تحليل النصوص الشرعية، وأقوال أئمة أهل السنة والجماعة، ومقارنة بعض المفاهيم النفسية المعاصرة ذات الصلة بالتوازن النفسي بما يقابلها في التصور الإسلامي من حيث المرجعية والغاية والآثار النفسية، وتقويمها في ضوء الميزان العقدي، مع الاستفادة من

الخبرة الإنسانية النافعة فيما لا يخالف مرجعية الوحي، أو يختزل المفاهيم العقدية في وظائف نفسية مجردة.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في أن كثيرًا من البحوث المعاصرة تناولت العلاقة بين الدين والصحة النفسية تناولًا عامًا، أو ركزت على الجوانب العلاجية والإرشادية، في حين لم تحظَ دراسة أثر الإيمان بالقدر- بوصفه أصلًا عقديًا مستقلًا - بالعناية الكافية، ولا سيما في إطار دراسة تجمع بين التأصيل العقدي والتحليل النقدي للفكر النفسي الحديث. ومن ثم تسعى الدراسة للإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

كيف يسهم الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي في ضوء الفكر النفسي الحديث من منظور عقدي؟

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

- ما حقيقة الإيمان بالقدر ومراتبه في عقيدة أهل السنة والجماعة؟
- ما مفهوم التوازن النفسي في الفكر النفسي الحديث؟
- كيف يؤثر الإيمان بالقدر في بناء التوازن النفسي؟
- ما أوجه الاتفاق والاختلاف بين التصور الإسلامي وبعض الاتجاهات النفسية الحديثة؟
- ما حدود الاستفادة من الفكر النفسي الحديث في ضوء العقيدة الإسلامية؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

1. بيان حقيقة الإيمان بالقدر ومراتبه في ضوء الكتاب والسنة وفهم أهل السنة والجماعة .

2. إبراز أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي .
3. تحليل مفهوم التوازن النفسي في الفكر النفسي الحديث .
4. تقويم بعض الاتجاهات النفسية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية .
5. تقديم نموذج عقدي يبرز دور الإيمان بالقدر في بناء الشخصية المتوازنة .

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في عدة جوانب، من أبرزها:

- إبراز البعد النفسي لأحد أصول الإيمان دون الإخلال بطبيعته العقدية .
- الإسهام في ربط الدراسات العقدية بالقضايا المعاصرة .
- بيان حدود الإفادة من الفكر النفسي الحديث في ضوء المرجعية الإسلامية .
- تقديم رؤية علمية يمكن الإفادة منها في الإرشاد النفسي الإسلامي .

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على:

المنهج الاستقرائي: في جمع النصوص الشرعية وأقوال العلماء المتعلقة بالإيمان بالقدر.

المنهج التحليلي: في تحليل النصوص العقدية وبيان آثارها النفسية وصلتها بتحقيق التوازن النفسي.

المنهج النقدي المقارن: في إجراء مقارنة جزئية منضبطة بين التصور العقدي الإسلامي وبعض المفاهيم النفسية المعاصرة ذات الصلة بموضوع الدراسة، ولا سيما قبول الواقع، والمرونة النفسية، وإعادة تفسير الحدث الضاغط؛ وذلك من حيث المرجعية، وتصور الإنسان، والغاية، والوظيفة

النفسية، مع بيان أوجه الاتفاق والاختلاف، وتقويم ما يمكن الاستفادة منه في ضوء أصول العقيدة الإسلامية.

الدراسات السابقة:

على الرغم من تزايد الاهتمام بالعلاقة بين التدين والصحة النفسية خلال العقود الأخيرة، فإن الدراسات التي تناولت الإيمان بالقدر بوصفه أصلًا عقديًا مستقلًا، وربطته بمفهوم التوازن النفسي في ضوء النظريات النفسية الحديثة، لا تزال محدودة. ويمكن تصنيف الدراسات السابقة إلى اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول: الدراسات النفسية ذات المرجعية الإسلامية:

ركز هذا الاتجاه على العلاقة بين التدين والصحة النفسية، أو أثر الإيمان والعبادات في علاج الاضطرابات النفسية. ومن أبرز هذه الدراسات:

- مصطفى ملكاوي، علم النفس والإيمان، الذي تناول أثر العقيدة الإسلامية في بناء الشخصية المتوازنة، وربط بين الإيمان والصحة النفسية، وهو من المراجع العربية المعاصرة ذات الصلة بالموضوع.
 - محمد عثمان نجاتي في عدد من مؤلفاته، ومنها القرآن وعلم النفس والحديث النبوي وعلم النفس، حيث بين ما تتضمنه النصوص الشرعية من أصول تربية ونفسية تسهم في بناء الشخصية السوية، مع بقاء موضوع القدر بحاجة إلى دراسة عقدية مستقلة تجمع بين التأصيل والتحليل.
- ويمتاز هذا الاتجاه بإبراز الأبعاد النفسية للنصوص الشرعية، إلا أنه غالبًا لا يناقش الأصول العقدية للقدر بصورة تفصيلية، ولا يقدم تحليلًا نقديًا للنظريات النفسية.

الاتجاه الثاني : التأصيل الإسلامي لمقومات التوازن النفسي.

يتناول هذا الاتجاه ما قرره علماء الإسلام في أعمال القلوب ومقامات العبودية من معانٍ لها صلة وثيقة ببناء الشخصية المتوازنة، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، مع الإفادة من كتب التفسير وشرح السنة.

ومن أبرز المصادر المؤسسة لهذا الاتجاه:

- ابن تيمية، في مجموع الفتاوى، ولا سيما مباحث أعمال القلوب والتوكل والصبر والرضا، حيث يقرر أن هذه الأعمال من أصول الإيمان وقواعد الدين، وأن صلاح القلب هو أساس صلاح العبد.
 - ابن القيم، في مدارج السالكين وشفاء العليل وعدة الصابرين وزاد المعاد، حيث عالج أحوال القلب، والتوكل، والصبر، والرضا، والابتلاء، وربطها بحقيقة العبودية والإيمان بالقدر.
 - وتكشف هذه المصادر عن تأصيل إسلامي أصيل لمقومات الطمأنينة والثبات والتوازن في مواجهة الابتلاء، مع بقاء الحاجة إلى دراسة مستقلة تجمع هذه الأصول في إطار أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي.
- وتتميز هذه المعالجة بأصالة مرجعيتها؛ إذ تستند إلى الكتاب والسنة وفهم أئمة أهل السنة، وتتعامل مع القضايا النفسية من داخل التصور الإسلامي، بما يتيح الإفادة من الخبرة الإنسانية النافعة دون جعلها مرجعاً في أصول الاعتقاد.

تعقيب على الدراسات السابقة:

يتبين من العرض السابق أن المصادر السابقة - على أهميتها - لم تجمع في دراسة مستقلة بين التأصيل العقدي العميق للإيمان بالقدر، والتحليل النفسي لآثاره، وبناء نموذج معرفي يفسر العلاقة بين الإيمان بالقدر والتوازن النفسي.

فقد ركزت المصادر العقدية على تقرير مسائل القدر وأعمال القلوب، بينما تناولت الكتابات الإسلامية المعاصرة أثر الإيمان في الصحة النفسية بصورة عامة؛ ومن ثم تظل الحاجة قائمة إلى دراسة تجمع بين التأصيل العقدي والتحليل المنهجي لآثار الإيمان بالقدر في بناء التوازن النفسي. ومن ثم تتميز هذه الدراسة بأنها:

1. تؤصل مفهوم التوازن النفسي انطلاقاً من عقيدة أهل السنة والجماعة.
2. تقدم قراءة نقدية لأبرز الاتجاهات النفسية المعاصرة.
3. تحلل أوجه الاتفاق والاختلاف بين التصور الإسلامي والنظريات النفسية.

4. تقترح نموذجاً عقدياً للتوازن النفسي مستنداً إلى الإيمان بالقدر.

الفجوة البحثية:

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت القضاء والقدر من الناحية العقدية، وكثرة البحوث النفسية التي تناولت الصحة النفسية والتكيف مع الضغوط، فإن الباحث - في حدود ما اطلع عليه - لم يقف على دراسة عقدية تجمع بين الجانبين من خلال تحليل أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي، مع إخضاع مفاهيم الفكر النفسي الحديث للميزان العقدي، وبيان حدود الإفادة منها في ضوء أصول أهل السنة والجماعة.

ومن هنا تتمثل الفجوة البحثية في غياب دراسة تجمع بين التأصيل العقدي والتحليل النقدي للفكر النفسي الحديث، بحيث تقدم نموذجاً يبرز أثر الإيمان بالقدر في بناء الشخصية المؤمنة وتحقيق التوازن النفسي، مع المحافظة على استقلال المرجعية الإسلامية.

الإضافة العلمية للدراسة:

تتمثل الإضافة العلمية لهذه الدراسة في عدة جوانب، يمكن إجمالها فيما يأتي:

1. **تقديم معالجة عقدية متخصصة** لأثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي، من خلال ربط هذا الأصل الإيماني بآثاره النفسية والسلوكية، بعيداً عن الاختصار على العرض العقدي التقليدي أو التناول النفسي المجرد .
2. **الجمع بين التأصيل والتحليل والنقد؛** إذ لم تقتصر الدراسة على استقراء النصوص الشرعية وأقوال علماء أهل السنة والجماعة في باب القدر، وإنما حللت آثار الإيمان بالقدر في ضوء القضايا النفسية المعاصرة، ثم ناقشت بعض مفاهيم الفكر النفسي الحديث مناقشة نقدية في ضوء المرجعية الإسلامية .
3. **تقويم المفاهيم النفسية الحديثة** المتعلقة بالتوازن النفسي والمرونة النفسية وتقبل الواقع وإدارة الضغوط، وبيان أوجه الاتفاق والإفادة الممكنة منها، مع الكشف عن مواطن الاختلاف في المنطلقات الفلسفية والمرجعيات المعرفية .
4. **إبراز خصوصية التصور الإسلامي** في تفسير التوازن النفسي، من خلال بيان أن الطمأنينة في الإسلام ليست مجرد حالة انفعالية أو

توافق نفسي، وإنما ثمرة لصحة الاعتقاد، وسلامة التوحيد، والإيمان بالقدر، والتوكل، والرضا، والصبر، وحسن الظن بالله تعالى.

5. اقتراح نموذج عقدي للتوازن النفسي يربط بين أصول الإيمان وأعمال القلوب وآثارها النفسية، ويبرز التكامل بين البناء العقدي والبناء النفسي، بما يسهم في إثراء الدراسات البينية بين العقيدة الإسلامية وعلم النفس .

6. سد فجوة علمية في الدراسات العقدية المعاصرة، وذلك بتناول الإيمان بالقدر بوصفه عاملاً محورياً في تحقيق التوازن النفسي، مع دراسة ذلك في ضوء الفكر النفسي الحديث دراسة تحليلية نقدية، وهو جانب لم يحظ - في حدود اطلاع الباحثة - بدراسة مستقلة تجمع بين التأصيل العقدي والنقد العلمي المقارن .

هيكل البحث:

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة:

المبحث الأول: التأصيل العقدي للإيمان بالقدر وأثره في بناء الشخصية المتوازنة.

المطلب الأول : مفهوم الإيمان بالقدر ومراتبه.

المطلب الثاني: أثر الإيمان بالقدر في بناء الشخصية المؤمنة وتحقيق التوازن النفسي.

المطلب الثالث: الإيمان بالقدر وأثره في تصحيح التصورات النفسية الخاطئة: دراسة عقدية نقدية.

المبحث الثاني: مفهوم التوازن النفسي في ضوء الفكر النفسي المعاصر والميزان العقدي.

المطلب الأول: مفهوم التوازن النفسي في الفكر النفسي الحديث.

المطلب الثاني: الأسس العقدية للتوازن النفسي في الإسلام وموقع الإيمان بالقدر منها.

المبحث الثالث: التقويم العقدي للفكر النفسي المعاصر في ضوء الإيمان بالقدر وأثره في تحقيق التوازن النفسي.

المطلب الأول : أوجه الاتفاق بين الإيمان بالقدر وبعض مفاهيم الفكر النفسي الحديث.

المطلب الثاني : التقويم العقدي للفكر النفسي الحديث وحدود الإفادة منه في تحقيق التوازن النفسي.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج، أهم التوصيات، آفاق البحث المستقبلية .

المبحث الأول

التأصيل العقدي للإيمان بالقدر وأثره في بناء الشخصية المتوازنة

تمهيد:

يمثل الإيمان بالقدر أحد الأصول الكبرى التي يقوم عليها البناء العقدي في الإسلام، فهو الركن السادس من أركان الإيمان، ولا يكتمل إيمان العبد إلا بالإقرار به، كما دل عليه حديث جبريل المشهور حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".⁽¹⁾

ولا يقتصر الإيمان بالقدر على كونه قضية غيبية تتعلق بعلم الله تعالى ومشيئته وخلقه، بل يعد أساساً في بناء التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة؛ إذ يفسر ما يحيط بالإنسان من أحداث، ويضبط موقفه من النعم والمحن، ومن النجاح والإخفاق، فيرسخ معاني الرضا، والصبر، والتوكل، وحسن الظن بالله تعالى، وهي معانٍ تمثل أساس الاستقرار النفسي في الإسلام.

وقد قرر القرآن الكريم هذا الأصل من خلال الجمع بين إثبات عموم قدر الله تعالى وإرادته، وإثبات مسؤولية الإنسان عن أفعاله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: 49، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوين: 29، وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف: 29. وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن هذه النصوص متكاملة، فهي تثبت مشيئة الله تعالى النافذة مع

1- صحيح مسلم، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (8)

إثبات مشيئة العبد وقدرته واختياره، وبذلك يتوسط منهجهم بين الجبرية⁽¹⁾ والقدرية⁽²⁾.

ويقصد التوازن النفسي في سياق هذه الدراسة : حالة من الاستقرار والطمأنينة تمكن الإنسان من التعامل مع ضغوط الحياة وابتلاءاتها، وضبط انفعالاته وأفكاره، ومواصلة أداء وظائفه وتحقيق أهدافه بصورة متزنة، دون أن يعني ذلك انتفاء الحزن أو القلق، وإنما القدرة على التعامل معهما بما يحفظ قدرًا مناسبًا من الثبات والفاعلية⁽³⁾.

ومن هذا المنطلق فإن دراسة أثر الإيمان بالقدر في تحقيق التوازن النفسي ينبغي أن تنطلق من التأصيل العقدي لهذا الأصل، لأن صحة الاعتقاد هي التي تشكل رؤية الإنسان للأحداث وتوجه استجابته لها. فالقرآن الكريم لا يعرض الإيمان بالقدر بوصفه قضية غيبية مجردة، وإنما يجعله

1- الجبرية: فرقة كلامية غلت في إثبات القدر، فقالت إن العبد مجبور على أفعاله، ولا اختيار له ولا قدرة مؤثرة، وإنما أفعاله واقعة عليه كحركة الجمادات.

2- القدرية: فرقة كلامية أنكرت عموم القدر، وقالت إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالاً، ونفت أن تكون أفعال العباد داخلة في تقدير الله تعالى ومشيئته. (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ج8، ص: 449 - 450، ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: زاهر سالم بلفقيه، دار عطاءات العلم، الرياض، ط1، 1440هـ، ج1، ص: 112 - 116).

الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومجموعة، المكتب الإسلامي، ص: 445 - 448. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص: 334 - 335).

3- ينظر :ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ج10، ص198-193؛ وابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص.158-156

أساساً لبناء النفس المؤمنة؛ إذ يربط الوقائع كلها بحكمة الله تعالى وتقديره، فيغرس في النفس الطمأنينة، ويعينها على مواجهة الابتلاءات بثقة وصبر، بعيداً عن الجزع أو اليأس، وهو ما يجعل الإيمان بالقدر أحد أهم المرتكزات العقدية لتحقيق التوازن النفسي.

المطلب الأول: مفهوم الإيمان بالقدر ومراتبه:

أولاً: الإيمان بالقدر لغةً:

الإيمان لغةً: التصديق والإقرار، ويأتي بمعنى الأمن والطمأنينة ⁽¹⁾.

والقدر لغةً: من الفعل (قدر)، وهو القضاء، والحكم، والتقدير، وإحكام الشيء على مقدار مخصوص. ⁽²⁾

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: 49.

ثانياً: الإيمان بالقدر اصطلاحاً:

الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن الله سبحانه وتعالى قد علم مقادير الأشياء أزلاً، وكتبها في اللوح المحفوظ، وشاء وقوعها، وخلقها على وفق علمه وحكمته، مع إثبات قدرة العبد واختياره ومسؤوليته عن أفعاله.

وهذا هو التعريف المستفاد من مجموع نصوص الكتاب والسنة، وما قرره أئمة أهل السنة والجماعة في باب القضاء والقدر. ⁽³⁾ يحتل الإيمان بالقدر منزلة رفيعة في البناء العقدي الإسلامي، فهو الركن السادس من

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة «أمن»، دار صادر، بيروت، ط13، ج13، ص21؛ ومادة «قدر»، ج5، ص74.

2- الأصفهاني (مفردات ألفاظ القرآن، مادة (قدر)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ص657-661.

3- ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص7، وص449؛ ابن القيم، شفاء العليل، ج1، ص29، وج2، ص33؛ الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، ص278-274.

أركان الإيمان، ولا يصح إيمان العبد إلا بالإيمان به، وقد دلَّ على ذلك حديث جبريل المشهور، حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»⁽¹⁾.

ولا تقتصر أهمية الإيمان بالقدر على كونه أصلاً من أصول الاعتقاد، بل يمتد أثره إلى تشكيل رؤية المؤمن للكون والحياة والإنسان، إذ يقرر أن جميع الحوادث تجري بعلم الله تعالى، وكتابته، ومشيتته، وخلقه، وأنها قائمة على الحكمة والعدل والرحمة، وهو ما يمنح المؤمن تفسيراً متماسكاً للأحداث التي يمر بها، وبقيه من الاضطراب الفكري والنفسي الناتج عن الاعتقاد بالعشوائية أو العبث.

وقد تضافرت نصوص القرآن الكريم في تقرير هذا الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: 49. وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ الحديد: 22-23.

وتبرز الآية الأخيرة بوضوح البعد النفسي للإيمان بالقدر؛ إذ بينت أن العلم بأن المصائب مقدرة قبل وقوعها يثمر الاعتدال الانفعالي، فلا يستسلم المؤمن للحزن المفرط على ما فاتته، ولا يطغى بالفرح عند حصول النعم، وهو

1- أخرجه صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (8) ص36. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، ج1، ص76

ما يعبر عنه القرآن بمنهج التوازن الوجداني الذي يقوم على الاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط.

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: إن الله تعالى أخبر عباده أن جميع المصائب مكتوبة قبل وقوعها؛ لكي يعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فلا يشتد جزعهم عند المصيبة، ولا يتجاوزوا الحد عند النعمة⁽¹⁾.

وقال الإمام ابن كثير عند تفسير الآية: إن الله سبحانه أخبر أن جميع الكائنات قد سبق بها علمه، وجرت بها مقاديره قبل أن يخلق الخلق، ثم بين أن الحكمة من ذلك تربية المؤمن على الرضا بقضاء الله تعالى، وعدم الإفراط في الحزن أو الفرح⁽²⁾.

وبُعد هذا الربط بين الإيمان بالقدر والاعتدال الانفعالي من أدق المواطن التي يظهر فيها التكامل بين التأصيل العقدي والبعد النفسي؛ إذ لم تعرض الآية قضية القدر بوصفها مسألة غيبية مجردة، وإنما ربطتها مباشرة بأثرها في تهذيب المشاعر الإنسانية، وضبط الانفعالات، وإيجاد حالة من الاستقرار النفسي القائم على الثقة بحكمة الله تعالى.

وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى، فقرر أن الإيمان بالقدر يورث العبد الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، ويمنعه من السخط

1- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ، ج22، ص195.

2- ابن كثير تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1420هـ، ج8، ص27.

والجزع، لأن العبد يعلم أن ما قدره الله واقع لا محالة، وأن الله سبحانه حكيم في أقداره، فلا يعترض على حكمه، ولا ينازعه في قضائه. (1)

ويقدر ابن القيم أن باب القدر من أعظم أبواب معرفة الله تعالى، وأن من رسخ إيمانه بالقدر امتلأ قلبه طمأنينةً وسكينةً، لأنه أيقن أن جميع الوقائع تجري وفق علم الله تعالى وحكمته، وأن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب مع التسليم لقضاء الله، وأن هذا الفهم هو الذي يحقق كمال العبودية لله تعالى. (2).

التحليل العقدي:

يتبين من النصوص السابقة أن القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أئمة أهل السنة لا ينظرون إلى الإيمان بالقدر بوصفه مجرد أصل من أصول الاعتقاد، وإنما يقدمونه إطاراً معرفياً يعيد تشكيل وعي الإنسان بالوجود، ويصح تفسيره للأحداث، ويهذب استجاباته الانفعالية. ومن ثم فإن التوازن النفسي في التصور الإسلامي ليس ثمرة لتقنيات علاجية مجردة، وإنما هو ثمرة رسوخ الإيمان بالله تعالى، والإيمان بقدره، واليقين بحكمته وعدله، وهو ما يمثل نقطة التمايز الرئيسة بين الرؤية العقدية الإسلامية وبعض الاتجاهات النفسية الحديثة التي تؤسس التوازن النفسي على المرجعية الإنسانية وحدها.

ثالثاً: مراتب الإيمان بالقدر:

استقرأ علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة، وانتهوا إلى أن الإيمان بالقدر يقوم على أربع مراتب متلازمة، هي: العلم، والكتابة، والمشيشة، والخلق، ولا يتحقق الإيمان الصحيح بالقدر إلا بالإيمان بهذه

1- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص304

2- ابن القيم، شفاء العليل، ص364.

المراتب جميعاً، لأنها تمثل البناء العقدي المتكامل الذي يجمع بين كمال ربوبية الله تعالى وإثبات مسؤولية الإنسان عن أفعاله.

ولا تُعد هذه المراتب مجرد تقسيم اصطلاحى، بل هي خلاصة استقراء النصوص الشرعية، وقد قررها أئمة أهل السنة في مصنفاتهم العقدية، وعدّوها الضابط الذي يميز مذهب أهل السنة عن مذاهب القدرية والجبرية.

أولاً: مرتبة العلم:

ويقصد بها الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى قد أحاط علمه بكل شيء أزلاً وأبداً، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد علم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأن علمه سبحانه كامل، محيط، لا يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان.

وقد تكرر تقرير هذه المرتبة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق: 12.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنفال: 75. وقوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: 59.

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: أي لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، ولا من أحوال خلقه، بل قد أحاط علمه بجميع الموجودات ظاهرها وباطنها⁽¹⁾.

وأكد ابن كثير أن الآية دليل على عموم علم الله تعالى، وأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، وأن إحاطة علمه من لوازم كمال ربوبيته⁽²⁾.

1- الطبري، ج24، ص 469.

2- ابن كثير، ج8، ص177-178.

ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن العلم الإلهي السابق لا يوجب الجبر، وإنما يدل على كمال علم الله تعالى، لأن العلم تابع للمعلوم، وليس سبباً في وقوعه، وأن الخلط بين العلم والإكراه هو منشأ كثير من شبهات القدرية والجبرية (1).

ويؤكد ابن القيم هذا المعنى بقوله: إن سبق العلم الإلهي لا يسلب العبد اختياره، وإنما يدل على كمال إحاطة الله تعالى بما سيكون من أفعال العباد، مع بقائهم مختارين مسؤولين عنها (2).

التحليل العقدي:

تعد مرتبة العلم الأساس الذي تُبنى عليه بقية مراتب القدر؛ إذ إن الكتابة فرع عن العلم، والمشیئة متعلقة بما علمه الله تعالى، والخلق واقع وفق ما سبق به علمه. ومن الناحية النفسية، فإن الإيمان بإحاطة علم الله تعالى يحرر المؤمن من القلق الوجودي المرتبط بالشعور بأن الحياة تسير وفق المصادفة أو الفوضى؛ إذ يدرك أن كل ما يقع داخل في علم الله السابق، وأن علمه سبحانه مقرون بالحكمة والعدل، مما يورث القلب سكينَةً وثقةً، ويحد من مشاعر الخوف المفرط تجاه المستقبل.

ولا يعني ذلك إلغاء مسؤولية الإنسان أو دعوته إلى الاستسلام، بل يؤسس لفهم متوازن يجمع بين الثقة بالله تعالى والأخذ بالأسباب، وهو ما سيظهر بصورة أوضح عند الحديث عن مرتبة المشیئة.

1- ابن تيمية .مجموع الفتاوى.، ج8، ص 47- 52.

2- ابن القيم، شفاء العليل، ج1، ص 27- 35.

ثانياً: مرتبة الكتابة:

تُعدُّ مرتبة الكتابة المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر، ومقتضاها الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الخلائق جميعها قبل خلق السماوات والأرض، وأن كل ما يقع في الكون إنما يجري وفق ما سبق به علم الله تعالى وجرى به قلمه، دون أن يقتضي ذلك سلب العبد اختياره أو إسقاط مسؤوليته عن أفعاله. وقد دلَّت النصوص الشرعية على هذه المرتبة دلالةً صريحة، فجاءت مبينة أن الكتابة الإلهية تعبير عن كمال العلم والإحاطة، وليست إكراهًا للعباد على أفعالهم.

ومن أبرز النصوص الواردة في ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء.» كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: 70. وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الحديد: 22.

وقد فسر الإمام الطبري هذه الآيات بأن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها قبل إيجادها، وأن ذلك من تمام علمه سبحانه وإحاطته بكل شيء، وليس المراد به نفي اختيار العبد أو مسؤوليته⁽¹⁾.

وقال الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: أي في اللوح المحفوظ، وقد كتب الله تعالى فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، ليظهر

1- الطبري، ج16، ص608، وج22، ص393.

كمال علمه وسابق تقديره، وليس معنى ذلك أن العباد مجبورون على أفعالهم؛ لأن الله سبحانه أثبت لهم قدرة وإرادةً يترتب عليهما التكليف والثواب والعقاب⁽¹⁾.

وقد اعتنى شيخ الإسلام ابن تيمية ببيان العلاقة بين العلم والكتابة، فقرر أن كتابة المقادير فرع عن سبق العلم الإلهي، وأنها لا تستلزم الجبر، وإنما هي إخبار عما سبق في علم الله تعالى، وأن الاحتجاج بالقدر على ترك الأوامر أو ارتكاب المعاصي باطل شرعاً وعقلاً؛ لأن الله أمر العباد ونهاهم، وأثبت لهم قدرة ومشيةً تقع بها أفعالهم⁽²⁾.

كما يبين ابن القيم أن الكتابة الإلهية ليست علّة موجبة لفعل العبد، وإنما هي موافقة لما سبق به علم الله تعالى، وأن الخلط بين العلم والكتابة من جهة، والإجبار من جهة أخرى، هو أصل انحراف القدرية والجبرية، ولذلك أكد أن أهل السنة توسطوا بين الفريقين، فأثبتوا الكتابة مع إثبات اختيار العبد ومسؤوليته⁽³⁾.

التحليل العقدي:

تكشف مرتبة الكتابة عن بعدٍ عقدي مهم، يتمثل في أن حياة الإنسان ليست سلسلة من الوقائع العشوائية، وإنما تجري وفق تقدير إلهي سابق قائم على العلم والحكمة. وهذا الإدراك ينعكس على الجانب النفسي؛ إذ يخفف من حدة الاضطراب الناتج عن المفاجآت والمصائب، ويغرس في نفس المؤمن

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، ج12، ص96، وج19، ص489-490.

2- ابن تيمية. مجموع الفتاوى، ج8، ص130، وج14، ص355.

3- ابن القيم، شفاء العليل، ج1، ص72.

الثقة بأن ما وقع لم يكن خارجاً عن تدبير الله تعالى، وأن كل حادثة لها حكمة يعلمها الله، وإن خفيت على العبد.

غير أن هذا الأثر النفسي لا يتحقق إلا إذا فُهمت مرتبة الكتابة فهماً صحيحاً؛ إذ إن تحويلها إلى ذريعة لترك العمل أو تعليق الأخطاء على القدر يؤدي إلى نتيجة معاكسة، تتمثل في شيوع السلبية وإسقاط المسؤولية، وهو فهم رفضه القرآن الكريم، وردّه أئمة أهل السنة. ومن ثم فإن الكتابة في التصور الإسلامي ليست دعوة إلى الاستسلام، بل دعوة إلى الجمع بين اليقين بالقضاء والاجتهاد في الأخذ بالأسباب، وهو ما يمثل أحد أهم مرتكزات التوازن النفسي في الإسلام.

المطلب الثاني: أثر الإيمان بالقدر في بناء الشخصية المؤمنة وتحقيق التوازن النفسي:

لا يقف الإيمان بالقدر عند حدود كونه أصلاً من أصول الاعتقاد، بل يمتد أثره إلى تشكيل البنية النفسية والسلوكية للمؤمن؛ إذ يحدد طريقة نظره إلى نفسه، وإلى الكون، وإلى الأحداث التي تجري من حوله. ومن ثم فإن الحديث عن آثار الإيمان بالقدر ليس حديثاً عن نتائج ثانوية، وإنما عن ثمار ملازمة لهذا الأصل العقدي، تظهر في استقرار القلب، وسلامة الفكر، واتزان السلوك.

وقد اعتنى القرآن الكريم والسنة النبوية ببيان هذه الآثار، وربطاً بين الإيمان بالقدر وبين جملة من المقامات الإيمانية، كالصبر، والرضا، والتوكل، وحسن الظن بالله، وكلها تتمثل في مجموعها الأساس الذي يقوم عليه التوازن النفسي في المنظور الإسلامي.

أولاً: الإيمان بالقدر مصدر للطمأنينة النفسية:

تُعد الطمأنينة من أبرز الثمار التي يورثها الإيمان بالقدر، إذ ينتقل المؤمن من النظر إلى الحوادث بوصفها أحداثاً عشوائية إلى الإيمان بأنها تجري بعلم الله تعالى وحكمته، وأن ما قدره الله واقع لا محالة، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. وهذا اليقين يخفف من حدة القلق المرتبط بالمستقبل، ويمنع استنزاف النفس في التفكير في الاحتمالات التي لم تقع. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾⁽¹⁾ التغابن: 11. وقد فسر جماعة من السلف قوله تعالى: ﴿يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ بأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم⁽¹⁾.

وقد أورد الإمام النووي عند شرحه لأحاديث القدر أن من كمال الإيمان أن يسكن القلب إلى قضاء الله تعالى، وأن يعلم أن تقدير الله نافذ، وأن الاعتراض لا يغير المقدور، وإنما يزيد صاحبه همًا وحرزاً⁽²⁾.

ويؤكد ابن القيم أن من أعظم أسباب راحة القلب التسليم لله تعالى في أقداره، وأن القلب كلما ازداد يقيناً بحكمة الله وعدله، ازداد طمأنينةً وسكوناً؛ لأن الاضطراب ينشأ غالباً من الجهل بحكمة الله أو منازعة قضائه⁽³⁾.

التحليل العقدي:

يتبين من النصوص السابقة أن الطمأنينة في التصور الإسلامي ليست حالة نفسية منفصلة عن العقيدة، وإنما هي ثمرة مباشرة للإيمان بالله تعالى

1- الطبري ج23، ص421، ابن كثير، ج8، ص161.

2- النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، ج16، ص205.

3- ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ج1، ص381.

وبقدره. فالإنسان إذا أيقن أن الكون لا تحكمه المصادفة، وأن كل ما يقع إنما يقع بعلم الله وحكمته، زال عنه جانب كبير من القلق الوجودي الذي ينشأ عن الشعور بفقدان المعنى أو انعدام الغاية.

ومن هنا يختلف مفهوم الطمأنينة في الإسلام عن بعض التصورات النفسية الحديثة؛ إذ إن الطمأنينة في المنظور الإسلامي ليست مجرد مهارة لتنظيم الانفعالات، وإنما هي أثر من آثار التوحيد والإيمان بالقدر، ولذلك فإنها ترتبط بقوة الإيمان زيادةً ونقصاً.

ثانياً: الإيمان بالقدر وتعزيز الصبر والثبات أمام الابتلاء:

جعل الإسلام الابتلاء سنةً ماضية في حياة الإنسان، وربط القدرة على الصبر عليه بالإيمان بالله تعالى والإيمان بقدره. ولذلك لم يكن الصبر في التصور الإسلامي مجرد تحمل للألم، بل عبادة قلبية تنشأ عن اليقين بأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وأن الله تعالى لا يقضي إلا لحكمة. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ البقرة: 155-156. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان"⁽¹⁾.

ويستنبط ابن تيمية من هذا الحديث أصلاً عريضاً، وهو أن المؤمن يجمع بين أمرين: بذل السبب المشروع قبل وقوع المقدور، والرضا والتسليم بعد وقوعه، فلا يترك العمل بحجة القدر، ولا يعترض على القضاء بعد وقوعه⁽²⁾.

1- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم (2664). النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، ج16، ص251.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص319؛ وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم (2664).

التحليل العقدي:

يكشف الحديث النبوي عن منهج متوازن في التعامل مع الأحداث؛ إذ يبدأ بالأمر بالسعي: "أحرص على ما ينفعك"، ثم يربط هذا السعي بالاستعانة بالله، ثم ينهى عن العجز، ثم يوجه إلى الرضا بالمقدور بعد وقوعه. وهذا الترتيب ينسف الفهم الجبري للقدر، ويؤسس في الوقت نفسه لشخصية إيجابية، تجمع بين المبادرة والمسؤولية والرضا، وهي معانٍ تؤكد النصوص الشرعية في بناء المؤمن القادر على مواجهة الابتلاء بثبات.

ويظهر من خلال النصوص الشرعية وأقوال علماء أهل السنة أن الإيمان بالقدر ليس مجرد قضية غيبية، بل هو أصل عقدي ذو آثار نفسية عميقة، تتمثل في تحقيق الطمأنينة، وتعزيز الصبر، وتقوية الثقة بالله تعالى، وضبط الانفعالات عند النعم والمصائب. وهذه الآثار لا تنشأ من الإيمان بالمقدور مجرداً، وإنما من الإيمان بالله تعالى الذي قدّر الأشياء بعلمه وحكمته وعدله، وهو ما يمنح التصور الإسلامي خصوصيته وتميزه عن التفسيرات النفسية التي تكتفي بالبعد الإنساني دون المرجعية الإيمانية.

المطلب الثالث: الإيمان بالقدر وأثره في تصحيح التصورات النفسية الخاطئة: دراسة عقدية نقدية.

لا تنشأ الاضطرابات النفسية دائماً عن أسباب عضوية أو اجتماعية، بل قد يكون منشؤها تصورات فكرية خاطئة عن الله تعالى، وعن الإنسان، وعن الحياة، وعن طبيعة الابتلاء. ومن ثم فإن معالجة الجانب العقدي تُعد جزءاً أصيلاً من بناء التوازن النفسي في المنظور الإسلامي؛ لأن العقيدة الصحيحة تصحح التصور، والتصور الصحيح ينعكس على المشاعر

والسلوك. ولهذا قرر القرآن الكريم أن الانحراف في الاعتقاد يورث الضيق والاضطراب، بينما يورث الإيمان السكينة وطمأنينة القلب.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ الأنعام: 125. وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۖ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: 28.

وتدل الآيتان على أن الطمأنينة ليست أثرًا نفسيًا مجردًا، وإنما ثمرة للهداية والإيمان، وأن ضيق الصدر قد يرتبط بفساد التصور العقدي، وهو ما يؤسس لمنهج إسلامي في فهم العلاقة بين الاعتقاد والصحة النفسية⁽¹⁾.

أولاً: تصحيح مفهوم الابتلاء:

من أكثر التصورات التي تؤدي إلى الاضطراب النفسي الاعتقاد بأن وقوع المصيبة دليل على غضب الله تعالى أو تخلي الله عن عبده. ويصح الإيمان بالقدر هذا الفهم؛ إذ يقرر أن الابتلاء سنة إلهية تشمل الأنبياء والصالحين، وأنه لا يدل في ذاته على محبة الله أو بغضه، وإنما تتحدد منزلته بما يثمره في العبد من صبر ورضا واحتساب. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۖ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: 155. وروى سنن الترمذي عن سعد بن أبي وقاص

1- الطبري، ج9، ص541-552. (تفسير آية الأنعام: 125)، وج16، ص: 433 - 436 (تفسير آية الرعد: 28).

ابن كثير ج3، ص: 335 - 338 (تفسير آية الأنعام: 125)، وج4، ص: 456 - 457 (تفسير آية الرعد: 28).

رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل...»⁽¹⁾.

ويقرر ابن القيم أن من أعظم أسباب الجزع سوء الظن بالله تعالى، والجهل بحكمته في الابتلاء، وأن العبد إذا علم أن الله أرحم به من نفسه، وأنه لا يقضي إلا لحكمة، انقلب البلاء في حقه باباً للرضا واليقين².

التحليل:

يؤسس الإيمان بالقدر لتحول معرفي مهم؛ إذ ينتقل الإنسان من تفسير الابتلاء على أنه عبث أو ظلم، إلى اعتباره جزءاً من سنة الابتلاء والتمحيص. وهذا التحول لا يلغي الألم الطبيعي، لكنه يمنحه معنى شرعياً وإيمانياً؛ إذ يربط المؤمن بحكمة الله تعالى، ويعينه على الصبر والاحتساب والثبات.

ثانياً: تصحيح العلاقة بين الأخذ بالأسباب والتوكل:

من الأخطاء الشائعة في فهم القدر الاعتقاد بأن الإيمان به يقتضي ترك الأسباب، أو أن التوكل ينافي السعي والعمل. وقد رد القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الفهم، وأثبتا أن الأخذ بالأسباب جزء من الشرع، وأن تركها بحجة القدر مخالف لهدي الأنبياء.

1 أخرجه الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع (سنن الترمذي)، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم (2398) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، حديث رقم 4023.

2 ابن القيم، شفاء العليل، ج1، ص450 - 445، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، بإشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عطاءات العلم، ط1، ص 230 - 225، وص: 255 - 260.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»⁽¹⁾ ... «

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"⁽²⁾.

وهذه العبارة من أجمع ما قيل في بيان المنهج السني في باب الأسباب. ويشرح ابن القيم هذا الأصل بقوله: إن التوكل الحقيقي لا يتم إلا ببذل الأسباب التي أذن الله بها، وأن تركها تواكل مذموم، كما أن الاعتماد عليها دون الله قدح في كمال التوحيد⁽³⁾.

التحليل:

يحقق هذا الفهم توازنًا نفسيًا بالغ الأهمية؛ إذ يمنع الإنسان من الشعور بالعجز والاستسلام، كما يمنعه في الوقت نفسه من الغرور بأسبابه أو الانهيار عند إخفاقها. فالمؤمن يعمل ويخطط ويبذل جهده، لكنه لا يربط نتائج أعماله بقدرته وحدها، وإنما يكلها إلى الله تعالى. وهذا التوازن بين المسؤولية والتسليم يعد من أبرز سمات الشخصية المؤمنة.

ثالثاً: نقد القراءة النفسية المجردة للقدر:

اتجهت بعض الكتابات النفسية المعاصرة إلى تفسير أثر الإيمان بالقدر بوصفه وسيلة لتخفيف التوتر أو إعادة بناء الأفكار السلبية، وهو

1- سبق تخريج الحديث؛ انظر الحاشية السابقة المتعلقة بحديث صحيح مسلم في القدر.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص 528 وورد معناها موضحاً في ص: 169

3- ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ج2، ص118 - 114 .

تفسير لا يخلو من جانب صحيح، لكنه يظل قاصرًا إذا عزل الإيمان بالقدر عن حقيقته العقدية. فالإيمان بالقدر في الإسلام ليس تقنية علاجية، ولا مهارة ذهنية، ولا مجرد استراتيجية للتكيف، وإنما هو عبادة قلبية وأصل من أصول الإيمان يثمر الطمأنينة؛ لأنه قائم على الإيمان بالله تعالى، لا لأنه يؤدي وظيفة نفسية فحسب.

ومن هنا فإن اختزال الإيمان بالقدر في آثاره النفسية يفرغه من مضمونه التعبدي، ويحول العقيدة إلى أداة نفعية، بينما يقرر القرآن الكريم أن الإيمان مطلوب لذاته قبل النظر إلى آثاره، وأن ما يترتب عليه من السكينة والطمأنينة إنما هو من ثمراته، لا من علله.

يتبين من ذلك أن الإيمان بالقدر يسهم في تصحيح عدد من التصورات النفسية الخاطئة، وفي مقدمتها فهم الابتلاء، والعلاقة بين الأسباب والنتائج، والنظرة إلى المستقبل، إلا أن هذه الآثار لا تنفصل عن أصلها العقدي. ولذلك فإن أي معالجة نفسية تستلهم مفهوم القدر ينبغي أن تحافظ على مرجعيته الشرعية، وألا تحوله إلى مفهوم نفسي مجرد؛ لأن خصوصية التصور الإسلامي تكمن في أن الطمأنينة ثمرة للإيمان بالله تعالى والتسليم لحكمته، لا نتيجة لإعادة تنظيم الأفكار فحسب.

المبحث الثاني

مفهوم التوازن النفسي في ضوء الفكر النفسي المعاصر والميزان العقدي:

تمهيد:

شهد مفهوم التوازن النفسي اهتماماً واسعاً في الدراسات النفسية المعاصرة، ولا سيما مع تزايد معدلات القلق والاكتئاب والاضطرابات المرتبطة بضغوط الحياة الحديثة. وقد تعددت تعريفاته باختلاف المدارس النفسية، إلا أنها تكاد تتفق على أنه حالة من التوافق الداخلي، والقدرة على التكيف مع الضغوط، وإدارة الانفعالات، والمحافظة على الأداء الوظيفي للفرد.

وعلى الرغم من أهمية هذه المعالجات، فإنها تنطلق في الغالب من تصورات إنسانية أو فلسفية تختلف في مرجعياتها عن التصور الإسلامي؛ إذ تفسر الإنسان من خلال بنيته النفسية أو البيولوجية أو الاجتماعية، بينما ينظر الإسلام إلى الإنسان بوصفه كياناً مركباً من جسد وروح وعقل، وأن صلاح النفس لا يتحقق إلا بصلاح علاقتها بخالقها، وهو ما يجعل العقيدة أساساً في بناء الشخصية المتوازنة.

ومن هنا فإن دراسة التوازن النفسي في ضوء الفكر النفسي الحديث لا تعني التسليم بكل ما قرره المدارس النفسية، ولا رفضها جملةً، وإنما تهدف إلى الإفادة من نتائجها فيما لا يتعارض مع أصول الاعتقاد، مع إخضاع مفاهيمها للميزان العقدي المستمد من الكتاب والسنة.

المطلب الأول: مفهوم التوازن النفسي في الفكر النفسي الحديث:

يُعد مفهوم التوازن النفسي من المفاهيم المركزية في علم النفس، إلا أن الباحثين لم يتفقوا على تعريف جامع له؛ لاختلاف المدارس النفسية في تفسير طبيعة الإنسان، ومصدر السلوك، ومعيار الصحة النفسية. ومع ذلك

يمكن القول: إن التوازن النفسي يشير - في مجمله - إلى قدرة الفرد على تحقيق التوافق مع ذاته، ومع الآخرين، ومع البيئة المحيطة، بما يمكنه من مواجهة ضغوط الحياة دون أن يفقد استقراره الانفعالي أو كفاءته في أداء أدواره المختلفة.

وتقوم مقومات التوازن النفسي في المنظور الإسلامي على معانٍ متكاملة، منها طمأنينة القلب بذكر الله، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على البلاء، وحسن الظن به، وضبط النفس عند النعمة والمصيبة . وقد بسط ابن تيمية وابن القيم الحديث عن أعمال القلوب وآثارها في صلاح الإنسان واستقامته، بما يؤسس تصوراً متكاملًا للتوازن النفسي من داخل المرجعية الإسلامية⁽¹⁾.

ويظهر من هذا التأصيل أن الصحة النفسية في المنظور الإسلامي لا تختزل في الرفاه أو القدرة الوظيفية، بل ترتبط بسلامة القلب وصحة الاعتقاد واستقامة العمل، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾⁽²⁾.

ويلاحظ أن هذه التعريفات تركز على النتائج السلوكية والانفعالية، دون أن تجعل الإيمان أو العلاقة بالله تعالى عنصراً مكوناً لمفهوم الصحة النفسية، وهو ما يعكس اختلاف المرجعية الفكرية بين التصور النفسي الحديث والتصور الإسلامي.

1- ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص198-193؛ وابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص158-156، في بيان أعمال القلوب وأثرها في الطمأنينة والسكون.

2- ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص198-193؛ وابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص158-156.

التحليل العقدي:

لا ينكر الإسلام أهمية الاستقرار الانفعالي، ولا القدرة على التكيف مع الضغوط، بل يحث عليهما، إلا أنه يختلف مع كثير من الأدبيات النفسية في تحديد الأساس الذي يقوم عليه هذا التوازن . فبينما تجعل بعض المدارس النفسية الإنسان هو المرجع النهائي في تحديد معنى السعادة والصحة النفسية، يقرر الإسلام أن الإنسان مخلوق لله تعالى، وأن فطرته لا تستقيم إلا بعبادته، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: 28. وقال سبحانه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه: 123.

وقد قرر ابن تيمية أن في القلب فاقة لا يسدها إلا الإقبال على الله تعالى، وأن العبد مهما أوتي من أسباب الراحة الدنيوية، فإن قلبه لا يطمئن إلا بالإيمان⁽¹⁾.

وقال ابن القيم: "في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأُنس به"⁽²⁾.

وهذه العبارة تمثل أساساً عقدياً في تفسير الصحة النفسية؛ إذ تجعل أصل الطمأنينة اتصال القلب بالله تعالى، لا مجرد توازن العمليات النفسية. مناقشة نقدية:

يتبين من المقارنة السابقة أن مفهوم التوازن النفسي في الفكر النفسي الحديث يتفق مع التصور الإسلامي في الاهتمام بسلامة الإنسان الداخلية، والقدرة على مواجهة الضغوط، وضبط الانفعالات، إلا أنه يختلف عنه في المرجعية والأساس.

1- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص198 - 193 ، وص: 602 - 604.

2- ابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص156 - 158.

فالفكر النفسي الحديث ينطلق غالباً من مرجعية إنسانية تجعل الإنسان غايةً في ذاته، بينما ينطلق الإسلام من مرجعية ربانية تجعل تحقيق العبودية لله تعالى أساساً لصلاح النفس واستقرارها. ولذلك فإن الإيمان في التصور الإسلامي ليس عاملاً مساعداً للصحة النفسية فحسب، بل هو أصلها ومحورها، وما عداه من الوسائل النفسية إنما يكون نافعا إذا لم يتعارض مع هذا الأصل.

وعليه، فإن الإفادة من منجزات علم النفس الحديث أمر مشروع، بل مطلوب، شريطة ألا تُفسر الظواهر النفسية بمعزل عن البعد العقدي، وألا يُستبدل التفسير الإيماني بتفسيرات مادية أو إنسانية خالصة، لأن ذلك يؤدي إلى اختزال الإنسان في بعده النفسي وإغفال حقيقته الإيمانية.

المطلب الثاني: الأسس العقدية للتوازن النفسي في الإسلام:

إذا كانت الدراسات النفسية الحديثة تبحث عن العوامل التي تحقق الاتزان الانفعالي وتخفف من الاضطرابات النفسية، فإن التصور الإسلامي يقدم منظومة متكاملة لتحقيق هذا المقصد، تقوم على إصلاح علاقة الإنسان بربه قبل إصلاح علاقته بذاته أو بغيره. ومن ثم فإن التوازن النفسي في الإسلام ليس ثمرة عامل واحد، وإنما هو نتيجة لبناء عقدي متكامل تتفاعل فيه أصول الإيمان مع أعمال القلوب، فتثمر السكينة والطمأنينة والثبات أمام تقلبات الحياة.

ويأتي الإيمان بالقدر في قلب هذه المنظومة؛ لأنه يربط جميع ما يمر به الإنسان من أحداث بعلم الله تعالى وحكمته ومشيئته، فيمنحه تفسيراً إيمانياً للواقع، ويحول دون وقوعه في القلق الوجودي أو الاعتراض على قضاء الله تعالى. غير أن أثر الإيمان بالقدر لا يظهر منفرداً، بل يتكامل مع بقية

المقامات الإيمانية، وفي مقدمتها التوحيد، والتوكل، والرضا، والصبر، وحسن الظن بالله.

أولاً: التوحيد أصل التوازن النفسي:

ينطلق الإسلام من أن أصل الاضطراب هو فساد العلاقة بالله تعالى، وأن صلاح القلب يبدأ بتوحيد الله وإخلاص العبودية له. ولذلك ربط القرآن الكريم بين الإيمان والأمن، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام: 82 وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل: 97.

وقد فسر ابن كثير "الحياة الطيبة" بأنها تشمل طمأنينة القلب، وسعة الصدر، والرضا بقضاء الله تعالى، وهي معاني تتجاوز مجرد الرفاه المادي إلى الاستقرار النفسي القائم على الإيمان⁽¹⁾.

ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن القلب مفطور على طلب ربه، وأنه لا يجد سعادته إلا في معرفته وعبادته، وأن كل ما سواه إنما يسكن إليه سكوناً مؤقتاً لا يلبث أن يزول⁽²⁾.

التحليل: يتضح أن التوحيد في التصور الإسلامي لا يقتصر على كونه قضية اعتقادية، بل يمثل أساساً لبناء الشخصية المستقرة؛ إذ ينقل مركز الاعتماد من النفس والمخلوق إلى الخالق، ويحرر الإنسان من خوف المفرط من المستقبل، ومن التعلق المرضي بالأسباب، ومن القلق الناتج عن تقلبات الحياة. ومن ثم فإن الأمن الذي وعد الله به المؤمنين هو أمن شامل، يشمل أمن العقيدة وأمن النفس.

1- ابن كثير، ج4، ص. 603 - 601.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص198-194، وص. 135.

ثانياً: التوكل والرضا ثمرتان للإيمان بالقدر:

يعد التوكل من أبرز أعمال القلوب التي تتفرع عن الإيمان بالقدر؛ إذ يقوم على اعتماد القلب على الله تعالى مع بذل الأسباب المشروعة. وقد قرن القرآن الكريم بين التوكل والإيمان في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: 23. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق: 3.

وقد بين ابن القيم أن التوكل لا يتحقق إلا باجتماع أمرين: صدق اعتماد القلب على الله، وبذل الأسباب التي أذن بها الشرع، وأن التفريط في أحدهما يخل بحقيقة التوكل⁽¹⁾.

أما الرضا بالقضاء فهو ثمرة متقدمة من ثمار الإيمان بالقدر، إذ لا يتحقق إلا بعد رسوخ اليقين بكمال علم الله تعالى وحكمته. وقد قرر ابن تيمية أن الرضا بالمقدور يورث انشراح الصدر، ويذهب عن القلب كثيراً من الهموم التي تنشأ من منازعة القدر⁽²⁾.

التحليل:

يمثل التوكل والرضا آليتين عقديتين لتحقيق التوازن النفسي؛ فالتوكل يمنع القلق قبل وقوع الحدث؛ لأنه يربط القلب بالله تعالى لا بالأسباب، والرضا يعالج الاضطراب بعد وقوع الحدث؛ لأنه يمنع الاعتراض على المقدور. وبهذا يجتمع للمؤمن الاطمئنان قبل الابتلاء والثبات بعده، وهي ميزة لا تتوافر في كثير من النماذج النفسية التي تركز على مرحلة التكيف بعد الأزمة أكثر من تركيزها على بناء اليقين قبل وقوعها.

1- ابن القيم، مدارج، ج2، ص. 118 - 114.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص338-334؛ وج10، ص. 681.

ثالثاً: حسن الظن بالله وأثره في مواجهة القلق:

من المقامات التي أولتها العقيدة الإسلامية عناية كبيرة حسن الظن بالله تعالى، وهو من ثمار معرفة أسمائه وصفاته، والإيمان بكمال حكمته وعدله ورحمته. وقد جاء في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي"⁽¹⁾. ويبين ابن القيم أن حسن الظن بالله ليس أمنية مجردة، بل هو ثمرة معرفة العبد بربه، وأن سوء الظن بالله من أعظم أسباب اضطراب القلب واعتراضه على القدر⁽²⁾.

التحليل: تؤكد الدراسات النفسية الحديثة أن التوقعات الإيجابية تقلل من حدة القلق وتزيد القدرة على التكيف، غير أن الإسلام لا يبني التفاؤل على التفكير الإيجابي المجرد، بل على حسن الظن بالله تعالى، القائم على العلم بأسمائه وصفاته ووعدته لعباده. وهذا يجعل التفاؤل في الإسلام عبادة قلبية، لا مجرد تقنية معرفية.

يتبين مما تقدم أن التوازن النفسي في الإسلام لا يقوم على عنصر منفرد، وإنما على منظومة عقدية متكاملة يبدأ أساسها بالتوحيد، وتتفرع عنها أعمال القلوب كالتوكل، والرضا، وحسن الظن بالله، ويأتي الإيمان بالقدر محوراً يجمع هذه المقامات ويمنحها بعدها العملي في التعامل مع أحداث الحياة. ومن ثم فإن أي دراسة لأثر الإيمان بالقدر في الصحة النفسية ينبغي أن تنظر إليه في إطار هذه المنظومة، لا بوصفه مفهوماً مستقلاً عن بقية أصول العقيدة.

1- صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، حديث رقم (7405)؛ وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم (2675).

2- ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 27، ج 3، ص 234 - 228.

المبحث الثالث

التقويم العقدي للفكر النفسي الحديث في ضوء الإيمان بالقدر
وأثره في تحقيق التوازن النفسي

تمهيد:

يمثل البحث في العلاقة بين العقيدة الإسلامية وعلم النفس الحديث أحد أبرز مجالات الدراسات البينية المعاصرة؛ لما يثيره من إشكالات معرفية ومنهجية تتعلق بطبيعة الإنسان، ومصدر المعرفة، وغاية الحياة، ومفهوم الصحة النفسية. وقد ازداد هذا الاهتمام مع اتساع نطاق الاضطرابات النفسية عالمياً، وتنامي الحاجة إلى نماذج تفسيرية وعلاجية تتجاوز البعد المادي أو الوظيفي للإنسان. وقد تعددت المعالجات المعاصرة لقضايا النفس والضغوط والابتلاء، وأسهمت الخبرة الإنسانية في تطوير وسائل نافعة للتعامل مع بعض المشكلات النفسية. غير أن الاستفادة من هذه الخبرة لا تستلزم التسليم بكل تفسير فلسفي أو تصور للإنسان، بل تقتضي التمييز بين الوسيلة النافعة وبين المرجعية التي تفسر الإنسان وغاية وجوده؛ وهو ما يقتضي إخضاع كل ما يستفاد منه للمرجعية الإسلامية.

ولا يعني هذا التقويم اتخاذ موقف الرفض المطلق لكل ما أنتجه علم النفس الحديث، كما لا يعني قبوله دون تمحيص؛ إذ إن المنهج الإسلامي يقوم على العدل والإنصاف، فيقبل ما ثبتت صحته ولم يخالف نصاً شرعياً أو أصلاً عقدياً، ويرد ما ناقض الوحي أو بُني على مقدمات فلسفية تخالف التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة. وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الحق لا يُرد لكون قائله غير مسلم، كما لا يُقبل الباطل لكون قائله مسلماً، وإنما العبرة بموافقته للحق الذي جاء به الوحي⁽¹⁾.

1- ينظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد

بن سعود الإسلامية، ج1، ص228-224؛ ومجموع الفتاوى، ج13، ص22-19

المطلب الأول: أوجه الاتفاق بين الإيمان بالقدر وبعض مفاهيم الفكر النفسي الحديث:

أدى التطور الكبير في علم النفس خلال العقود الأخيرة إلى ظهور عدد من الاتجاهات التي اهتمت بتعزيز الصحة النفسية، وتنمية المرونة النفسية، ومساعدة الإنسان على التعامل مع الضغوط والأزمات. وقد يلحظ الباحث وجود تقارب بين بعض ما توصلت إليه هذه الاتجاهات وبين الآثار النفسية التي قررتها النصوص الشرعية للإيمان بالقدر. غير أن هذا التقارب يحتاج إلى قدر من الدقة؛ إذ إن الاتفاق غالباً ما يكون في النتائج العملية، بينما يظل الاختلاف قائماً في الأساس العقدي الذي تنطلق منه كل رؤية. ومن ثم فإن بيان أوجه الاتفاق لا يراد به إثبات تطابق التصور الإسلامي مع النظريات النفسية الحديثة، وإنما يراد به إبراز عالمية بعض السنن النفسية التي دل عليها الوحي، مع المحافظة على استقلال المرجعية الإسلامية، وعدم تفسير النصوص الشرعية في ضوء النظريات النفسية المتغيرة.

أولاً: الإيمان بالقدر وقبول الواقع بعد وقوعه:

من المعاني التي تلنقي مع الهدى الشرعي أن مقاومة الواقع بعد وقوعه بالتحسر والاعتراض قد تزيد اضطراب النفس، وأن توجيهها إلى التسليم بما وقع مع الاستمرار في العمل المشروع يخفف آثار الحسرة ويعيدها إلى دائرة الفعل النافع.

وهذا المبدأ يلتقي من حيث الأثر النفسي مع ما قرره النصوص الشرعية في باب الإيمان بالقدر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا

تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽¹⁾.

وقرر الإمام النووي أن النهي عن قول «لو» ليس المقصود به مجرد اللفظ، وإنما ما ينشأ عنه من الاعتراض على القدر، أو استرسال النفس في الحسرة والندم المؤديين إلى الوهن واليأس، ولذلك أرشد النبي ﷺ إلى رد الأمر إلى قدر الله تعالى؛ لأن ذلك أدعى إلى سكون النفس، وانقطاع وساوس الشيطان⁽²⁾.

وقد توسع ابن القيم في بيان الحكمة من هذا التوجيه النبوي، فذكر أن الالتفات إلى الماضي بعد تعذر تغييره يورث القلب أنواعاً من الهم والحزن، وأن الإيمان بالقدر يحرر القلب من أسر الحسرة، وينقله من دائرة التمني العقيم إلى دائرة العمل المشروع والرضا بقضاء الله تعالى. وهذا التحليل يكشف عن البعد النفسي العميق للإيمان بالقدر، ويؤكد أن النصوص الشرعية لم تكتف بالأمر بالرضا، بل وجهت الإنسان إلى نمط معرفي صحيح في تفسير الأحداث، يقوم على التسليم لحكمة الله مع الاستمرار في الأخذ بالأسباب⁽³⁾.

التحليل العقدي:

يتبين من المقارنة السابقة أن هناك تشابهاً بين مفهوم قبول الواقع في بعض المدارس النفسية، وبين الرضا بالمقدور بعد وقوعه في الإسلام، إلا أن

1- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم (2664)؛ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج16، شرح الحديث نفسه.

2- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج16، شرح حديث «أحرص على ما ينفعك» رقم (2664).

3- ابن القيم، شفاء العليل، ص943-941

هذا التشابه لا يعني وحدة المفهومين. فالقبول في العلاج النفسي يُنظر إليه غالبًا بوصفه استراتيجية معرفية وسلوكية لتخفيف المعاناة النفسية، أما الرضا في الإسلام فهو عبادة قلبية تنبع من الإيمان بأن ما وقع قد سبق به علم الله تعالى وكتابته ومشيتته، وأنه صادر عن حكمة وعدل ورحمة، وإن خفي وجه الحكمة على العبد.

ومن ثم فإن القبول في الرؤية الإسلامية ليس غايةً نفسية مستقلة، وإنما هو ثمرة للإيمان بالله تعالى والإيمان بالقدر، ولذلك فإن أثره يمتد إلى ما هو أبعد من تخفيف القلق؛ إذ يورث العبد الطمأنينة، ويقوي صلته بالله، ويزيده تسليمًا ورضًا، وهي معانٍ لا يمكن تفسيرها في إطار المنهج النفسي التجريبي وحده. ويتبين أن المعنى المقصود من قبول الواقع بعد وقوعه مؤصل في الهدى النبوي، ولا يحتاج في تفسيره إلى مرجعية نفسية أجنبية؛ فالوحي يقرر للمؤمن كيف يتعامل مع المقدور، ويجمع له بين العمل قبل وقوعه والتسليم بعد وقوعه.

ثانيًا: الإيمان بالقدر والمرونة النفسية:

ويُقصد بالمرونة النفسية في سياق هذه الدراسة قدرة المؤمن على الثبات عند المحن، واستعادة قدرته على أداء واجباته بعد الصدمة، مع بقاء صلته بالله تعالى ورجائه فيه واستمراره في الأخذ بالأسباب. وهذا المعنى تؤسسه النصوص الشرعية في باب الصبر والاحتساب والثبات.

ويقرر ابن القيم أن الصبر قوة قلبية تقوم على اليقين بالله تعالى والثقة بحسن تدبيره، وأن العبد إذا رسخ يقينه بربه أمكنه احتمال البلاء والثبات

عليه، كما يقرر ابن تيمية أن المصائب قد تكون نعمة في حق المؤمن إذا أورثته الصبر والإنابة والافتقار إلى الله تعالى⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أهمية هذه النتائج، فإنها تركز في الغالب على وصف العوامل التي تساعد الإنسان على تجاوز الأزمات، دون أن تقدم تفسيراً متكاملًا للأساس الوجودي الذي يمنح الإنسان القدرة على الثبات أمام الابتلاءات. وهنا تظهر خصوصية التصور الإسلامي؛ إذ يجعل المرونة النفسية ثمرة مباشرة للإيمان بالله تعالى، وبخاصة الإيمان بالقدر.

وقد ربط القرآن الكريم بين الابتلاء وبين بناء الشخصية المؤمنة، فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة: 155-157.

تدل هذه الآيات على أن الابتلاء سنة ربانية، وأن الموقف الإيماني الصحيح منه لا يقوم على مجرد التكيف النفسي، وإنما على استحضار حقيقة العبودية لله تعالى، والإيمان بأن المرجع إليه سبحانه، وهو ما يثمر الصبر والثبات والرجاء.

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: إن المؤمن يسلم بأن نفسه وماله ملك لله تعالى، وأن رجوعه إليه حق، فإذا

1- ينظر: ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص48-42؛ وابن تيمية، مجموع

الفتاوى، ج10، ص.48-50

استحضر هذا المعنى هان عليه ما أصابه، وعلم أن ما وقع إنما جرى بقضاء الله وقدره⁽¹⁾.

وقال ابن كثير: إن الله سبحانه وعد الصابرين على المصائب بالهداية والرحمة والثناء، وهذه أعظم من مجرد زوال الحزن؛ لأنها تبني في القلب يقيناً يثمر الثبات والطمأنينة⁽²⁾.

وقرر ابن القيم أن الصبر ليس انفعالاً سلبياً، ولا مجرد احتمال للألم، وإنما هو قوة قلبية تتبع من اليقين بالله تعالى، والإيمان بحكمته، والثقة بحسن تدبيره، ولذلك كان الصبر مرتبطاً بالإيمان بالقدر ارتباطاً وثيقاً، إذ لا يصبر العبد الصبر الكامل إلا إذا أيقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه⁽³⁾.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن المصائب تكون نعمة في حق المؤمن إذا أورثته الصبر والإنابة والافتقار إلى الله تعالى، وأن البلاء قد يكون من أعظم أسباب ترقية العبد في الإيمان، إذا استقبله برضا وتسليم⁽⁴⁾.

التحليل العقدي:

يظهر من النصوص الشرعية أن الإسلام لا ينظر إلى المرونة النفسية بوصفها مهارة معرفية أو سلوكية فحسب، وإنما يعدّها ثمرة لبناء عقدي متكامل، يبدأ بالإيمان بالله تعالى، ويمر بالإيمان بالقدر، وينتهي بالصبر والرضا وحسن الظن بالله. ومن ثم فإن القدرة على تجاوز الأزمات في

1- الطبري، ج3، ص. 222-225 .

2- ابن كثير، ج1، ص. 468-471 .

3- ابن القيم، عدة الصابرين، ص. 48-42 ، ابن القيم، شفاء العليل، ص. 235-230

4- ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، ج10، ص 48-50 ، ص 333-335.

التصور الإسلامي ليست مجرد قدرة على استعادة التوازن، وإنما هي ارتقاء إيماني يزداد به المؤمن قرباً من ربه، ويترقى في مراتب العبودية.

ومن هنا يبرز الفرق الجوهرى بين المنظورين؛ فبينما تفسر أغلب الدراسات النفسية المرونة النفسية بعوامل داخلية أو بيئية، يضيف الإسلام بعداً غيبياً يتمثل في معية الله الخاصة للمؤمنين، ووعده لهم بالهداية والرحمة والأجر، وهو بعد لا يمكن إدراكه بالمنهج التجريبي، لكنه يمثل في العقيدة الإسلامية المصدر الأعظم للثبات النفسي.

كما أن المرونة النفسية في الإسلام ليست غاية مستقلة، وإنما وسيلة للاستمرار في عبادة الله تعالى والقيام بحقوقه، ولذلك فإن نجاح المؤمن في تجاوز المحنة لا يقاس بمجرد استعادة توازنه الانفعالي، بل يقاس أيضاً بما أحدثته المحنة من زيادة في إيمانه، وتصحيح لمفاهيمه، وتعميق لتوكله ورضاه.

ويظهر من التأصيل الشرعي أن الثبات أمام الضغوط والمحن معنى معتبر في بناء الشخصية المؤمنة، وأن قوة القلب لا تستمد من الأسباب وحدها، بل من اليقين بالله تعالى والإيمان بحكمته وقدره.

ويقدم الإيمان بالقدر إجابة عقدية عن هذا السؤال؛ إذ يمنح المؤمن يقيناً بأن الأحداث تجري بعلم الله تعالى وحكمته ومشيئته، وأن البلاء ليس عبثاً، بل هو جزء من سنة إلهية في الابتلاء والتمحيص والتربية. وهذا اليقين لا يخفف آثار الصدمة فحسب، بل يحول المحنة إلى فرصة للنمو الإيماني، وهو بعد لا تستوعبه كثير من النماذج النفسية ذات المرجعية المادية أو الإنسانية.

ومن ثم فإن الإفادة من مفهوم المرونة النفسية في الدراسات الإسلامية أمر محمود، بشرط إعادة تأصيله في ضوء العقيدة الإسلامية، وعدم فصله عن أصول الإيمان، ولا سيما الإيمان بالقدر، حتى لا يتحول إلى مفهوم وظيفي مجرد، منفصل عن غايته التعبدية ومصدره الإيمان.

ثالثاً: الإيمان بالقدر وإعادة تفسير الحدث الضاغط:

ويُقصد بإعادة تفسير الحدث الضاغط في هذا البحث : تصحيح نظرة الإنسان إلى ما يقع له في ضوء الإيمان بالله تعالى وحكمته وقدره، بحيث لا يفسر المصيبة تفسيراً يفضي إلى السخط واليأس، بل ينظر إليها في إطار الابتلاء والتمحيص والاحتساب، مع بقاء الأخذ بالأسباب.

وقد أصلت النصوص الشرعية لهذا المعنى حين دعت المؤمن إلى رد ما يخفى عليه من عواقب الأمور إلى علم الله تعالى وحكمته، وعدم بناء موقفه النفسي على مجرد الظن المحدود بعواقب الأحداث⁽¹⁾.

وهذا المعنى من الأصول التي قررها الوحي وأئمة أهل السنة؛ إذ ينقلون العبد من الحكم الجزئي على الواقعة إلى اليقين بأن علم الله تعالى أوسع، وأن ما يقدره سبحانه قائم على الحكمة، وأن هداية القلب عند المصيبة تكون بالإيمان والتسليم.

فقد وجّه القرآن الكريم المؤمن إلى النظر إلى الأحداث بمنظار الإيمان، وربط ظاهر الوقائع بحكمة الله تعالى وعلمه المحيط، قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ

1- ينظر :ابن القيم، شفاء العليل، ص525-520؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص-9
14، 93-91 ، في أثر تصحيح الاعتقاد والمعرفة في أعمال القلب.

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: 216﴾.

وهذه الآية تؤسس لقاعدة عقديّة عظيمة، وهي أن حكم الإنسان على الأحداث حكم جزئي محدود، أما علم الله تعالى فمطلق محيط، ومن ثم فإن ما يراه الإنسان شراً قد يكون في حقيقته خيراً، وما يراه خيراً قد يكون سبباً لضرره في دينه أو دنياه.

قال الإمام الطبري: إن الله سبحانه يخبر عباده أن كراهتهم للشيء أو محبتهم له ليست دليلاً على حقيقته؛ لأن علمهم قاصر، وعلم الله تعالى كامل، ولذلك وجب التسليم لحكمه والرضا بقضائه⁽¹⁾.

وقال ابن كثير: قد يكره الإنسان أمراً لما فيه من المشقة العاجلة، وهو سبب لخير كثير في العاقبة، وقد يحب أمراً لما فيه من اللذة القريبة، ويكون سبباً لهلاكه، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ ليرد علم العبد المحدود إلى علم الله الكامل⁽²⁾.

وتؤكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التغابن: 11.

وقد نقل الطبري وابن كثير عن جماعة من السلف أن المراد بقوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم⁽³⁾.

1- الطبري، ج4، ص 263-266.

2- ابن كثير، ج1، ص 565-567.

3- الطبري، ج23، ص 419-422، ابن كثير، ج8، ص 136-137.

ويعلق ابن القيم على هذه الآية بقوله: إن هداية القلب هنا ليست مجرد المعرفة، بل هي نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فيرى به حكمة الله في قضائه، فيسكن قلبه بعد الاضطراب، ويطمئن بعد القلق، ويرضى بعد الجزع⁽¹⁾.

التحليل العقدي:

يتفق التصور الإسلامي مع أصلٍ صحيح مفاده أن طريقة نظر الإنسان إلى الحدث تؤثر في استجابته له، إلا أن المرجعية التي يُعاد من خلالها بناء هذا النظر في الإسلام هي الوحي، والإيمان بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وقدره وحكمته.

وفي الإسلام فإن معيار النظر إلى الحدث هو موافقته للوحي، وإيمان العبد بأن ما قضاه الله تعالى قائم على العلم والحكمة والعدل والرحمة، وإن خفيت عليه تفاصيل الحكمة.

ومن هنا فإن إعادة تفسير الحدث في الإسلام ليست مجرد تقنية معرفية، وإنما هي عملية إيمانية تنطلق من تصحيح تصور الإنسان عن الله تعالى، وعن أسمائه وصفاته، وعن حقيقة القضاء والقدر، ثم يترتب على ذلك تصحيح نظره إلى الوقائع.

ويظهر هذا الفرق بجلاء عند وقوع المصائب الكبرى؛ فالعلاج المعرفي قد يسعى إلى تقليل الأفكار السلبية أو تعديلها، بينما يقدم الإيمان بالقدر تفسيراً أشمل، يجعل البلاء جزءاً من سنة الابتلاء والتمحيص، وسبباً لرفع الدرجات أو تكفير السيئات، كما قال النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من

1- ابن القيم، محمد بن أبي بكر. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . تحقيق: زاهر سالم بلفقيه، دار عطاءات العلم، ص 520-525.

نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها⁽¹⁾».

وهذا البعد الإيماني لا يغير تفسير الحدث فحسب، بل يغير معناه وغايته؛ إذ يتحول الألم من عبء نفسي إلى ميدان للعبودية، ومجال لاحتساب الأجر، وهو ما يمنح المؤمن قدرة على الصبر والثبات تتجاوز مجرد التكيف النفسي.

يتبين من العرض السابق أن إعادة التفسير المعرفي تمثل إحدى النقاط التي يلتقي فيها الفكر النفسي الحديث مع التصور الإسلامي من حيث الوظيفة النفسية، إلا أن الاختلاف الجوهرى يكمن في المصدر الذي تُستمد منه معايير التفسير.

فالنظريات المعرفية تجعل الإنسان هو المرجع في إعادة بناء أفكاره وفق ما تراه أكثر واقعية أو نفعاً، بينما يجعل الإسلام الوحي هو المرجعية العليا، ويؤسس إعادة تفسير الأحداث على الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وحسن الظن بالله، واليقين بحكمته.

ومن ثم فإن الإفادة من الوسائل النفسية المعاصرة في البيئة الإسلامية أمر مشروع إذا ثبت نفعها، واستُخدمت بوصفها وسائل علاجية أو إرشادية، وأُعيد تأصيلها في ضوء العقيدة الإسلامية، بحيث تكون أداة مساعدة لا بديلاً عن الوحي وأعمال القلوب.

1- أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، حديثاً رقم (5641)، (5642)، ج7، ص114؛ ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، حديث رقم (2573)، ج4، ص1993.

تكشف المحاور السابقة أن هناك مساحة معتبرة من التوافق في النتائج التطبيقية بين بعض مفاهيم الفكر النفسي الحديث وبين الآثار النفسية للإيمان بالقدر، مثل قبول الواقع، والمرونة النفسية، وإعادة تفسير الأحداث الضاغطة. غير أن هذا التوافق لا ينبغي أن يحجب الاختلاف العميق في المرجعية والمنطلقات؛ فالإسلام لا يجعل التوازن النفسي غاية مستقلة، وإنما يجعله ثمرة لصحة الاعتقاد، وكمال العبودية لله تعالى، والإيمان بحكمته وعدله في قضائه وقدره. ومن ثم فإن أي محاولة للجمع بين التصورين لا بد أن تنطلق من مرجعية الوحي، وأن تجعل منجزات علم النفس وسائل مساعدة، لا بدائل عن الأصول العقدية.

المطلب الثاني: التقويم العقدي للفكر النفسي الحديث وحدود الإفادة منه في تحقيق التوازن النفسي:

لا يمكن تقويم المعارف النفسية المعاصرة تقويمًا علميًا من منظور إسلامي دون التمييز بين الجانب التجريبي الذي يقوم على الملاحظة والبحث في الظواهر النفسية، وبين الجانب التفسيري الذي يتناول حقيقة الإنسان ومصدر المعرفة وغاية الحياة . والمنهج الذي تقتضيه أصول أهل السنة هو التمييز بين الخبرة الإنسانية القابلة للإفادة وبين التصور الفلسفي أو العقدي الذي لا يقبل إلا إذا وافق الوحي.

والمنهج الذي تقتضيه أصول أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط، القائم على التمييز بين ما هو خبرة إنسانية قابلة للإفادة، وبين ما هو تصور فلسفي أو عقدي لا يقبل إلا إذا وافق الوحي. وهذا المنهج ينسجم مع القاعدة التي قررها شيخ الإسلام ابن تيمية في التعامل مع العلوم والمعارف، ومفادها

أن الحق يُقبل من أي جهة صدر، والباطل يُرد ولو قال به من يُنتسب إلى الإسلام، لأن العبرة بموافقة الوحي لا بهوية القائل⁽¹⁾.

أولاً: المرجعية في تفسير الإنسان بين الوحي والفكر النفسي الحديث:

تقوم العقيدة الإسلامية على أن معرفة حقيقة الإنسان لا تُستمد من الملاحظة الحسية وحدها، وإنما من الوحي الذي أخبر عن أصل خلقه، وغاية وجوده، وطبيعة نفسه، وعلاقته بربه، ومآله بعد الموت. ومن ثم فإن الإنسان في التصور الإسلامي كائن مخلوق لعبادة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: 56. وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ المؤمنون: 115.

فالنظر في الإنسان من منظور إسلامي لا يقف عند الظواهر السلوكية أو الدوافع الجزئية، بل يردّها إلى حقيقة العبودية لله تعالى، وإلى ما قرره الوحي عن النفس والقلب والإرادة والمسؤولية. وتتباين المعالجات النفسية المعاصرة في تفسير السلوك والدوافع ووسائل التكيف، غير أن المنهج العقدي لا يجعل هذه التفسيرات مرجعاً نهائياً في معرفة الإنسان؛ إذ يرد ما خالف الوحي، ويستفيد مما ثبتت نفعه من الخبرة الإنسانية⁽²⁾.

التحليل العقدي:

لا ينكر الإسلام أثر العوامل النفسية والبيئية في تكوين السلوك، لكنه يرفض اختزال الإنسان فيها؛ لأن هذا الاختزال يتعارض مع النصوص

1- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ج1، ص 253-255. مجموع الفتاوى، ج9، ص 231-235.

2- ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص 9-14، 9-93، 91؛ وابن القيم، إغاثة اللهفان، ج1، ص 7-12، في بيان أثر فساد التصور وتعلق القلب في اضطرابه.

القطعية التي تثبت أن الإنسان مخلوق مكلف، له روح، وعقل، وإرادة، ومسؤولية شرعية. ومن ثم فإن أي نظرية تُفسر الإنسان بمعزل عن علاقته بالله تعالى تظل تفسيرًا جزئيًا، مهما بلغت دقتها في وصف بعض الظواهر النفسية.

وقد قرر ابن تيمية أن القلب هو محل الإيمان والإرادة والمحبة والخوف والرجاء، وأن صلاح الإنسان أو فساده مرتبط بصلاح قلبه، لا بمجرد توازنه النفسي أو توافقه الاجتماعي⁽¹⁾.

وهذا يبين أن العقيدة الإسلامية تقدم تصورًا أشمل للإنسان؛ لأنها تجمع بين البعد الروحي والنفسي والجسدي، في حين تركز أغلب النظريات النفسية على بعض هذه الأبعاد دون بعض.

ثانيًا: مفهوم الصحة النفسية بين التصور الإسلامي والنظريات الحديثة:

تتحدث بعض الكتابات المعاصرة عن الصحة النفسية من خلال مؤشرات مثل الاستقرار الانفعالي والقدرة على التكيف والقيام بالوظائف الاجتماعية، وهذه معانٍ معتبرة من حيث الوصف الوظيفي، لكنها لا تستوعب وحدها حقيقة الصحة في المنظور الإسلامي. فالصحة النفسية في الإسلام لا تنفصل عن صحة القلب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: 88-89.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله..." .

ويبين ابن القيم أن سلامة القلب لا تتحقق إلا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، وأن اضطراب القلب ناشئ عن تعلقه بغير الله أو جهله

1- ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج.10، ص 9-14، 91-93.

بربه، وهو تحليل يتجاوز المفهوم الوظيفي للصحة النفسية إلى مفهوم عقدي وأخلاقي متكامل⁽¹⁾.

التحليل العقدي:

تكشف المقارنة أن الصحة النفسية في الفكر الحديث تُقاس غالباً بمدى قدرة الفرد على التكيف مع نفسه ومجتمعه، بينما تُقاس في الإسلام بسلامة القلب واستقامة الاعتقاد والعمل. وقد ينجح الإنسان في التكيف الاجتماعي مع بقاءه مضطرباً من جهة الإيمان، كما قد يبتلى المؤمن بمرض نفسي أو عضوي مع بقاء قلبه عامراً بالإيمان، فلا يصح الخلط بين الصحة النفسية الإكلينيكية وسلامة القلب الإيمانية.

وهذه نقطة تحتاج إلى إبراز في البحث؛ لأنها تمنع الاستنتاج غير الدقيق بأن كل مؤمن لا يمكن أن يصاب باضطراب نفسي. فالإيمان بالقدر يعزز الصبر والرضا والطمأنينة، لكنه لا ينفي إمكان الإصابة باضطرابات نفسية لها أسباب بيولوجية أو عصبية أو اجتماعية، وإنما يؤثر في كيفية التعامل معها والتخفيف من آثارها.

ثالثاً: ضوابط الاستفادة من الفكر النفسي الحديث في ضوء العقيدة الإسلامية:

إن من مقتضيات المنهج العلمي الرصين ألا يُنظر إلى المعارف النفسية المعاصرة نظرة قبول مطلق أو رفض مطلق، وإنما يُعامل معها وفق ميزان علمي منضبط، يميز بين ما هو من قبيل الخبرة الإنسانية والتجربة القابلة للاستفادة، وبين ما هو من قبيل التصورات الفلسفية التي تتعلق بحقيقة الإنسان ومصدر المعرفة وغاية الوجود. وقد قرر علماء الإسلام أن الحكمة

1- ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة،

ج1، ص 7-12.

ضالة المؤمن، وأن العلوم الإنسانية إذا ثبت نفعها ولم تعارض نصاً شرعياً أو أصلاً عقدياً، فإن الإفادة منها جائزة، بل قد تكون مطلوبة إذا تحققت بها المصالح الشرعية. إلا أن هذه الإفادة لا تكون إلا في إطار ضوابط تحفظ المرجعية الإسلامية، وتمنع من ذوبان المفاهيم العقدية في النماذج الفكرية الوافدة، ومن أبرز هذه الضوابط ما يأتي:

1- الوحي هو المرجعية العليا في تفسير الإنسان:

تتطلق العقيدة الإسلامية من أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدر المعصوم في بيان حقيقة الإنسان، وغاية وجوده، وطبيعة نفسه، وعلاقته بربه، قال تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك:14.

فالذي خلق الإنسان هو الأعلم بحقيقته وبما يصلحه، ولذلك فإن كل تفسير نفسي يجب أن يُعرض على الوحي، فما وافقه قُبل، وما خالفه رُد، وما سكت عنه الشرع نُظر فيه بحسب الدليل والمصلحة. وقد قرر ابن تيمية أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، وأن التعارض إنما ينشأ من فساد الفهم أو ضعف الدليل، وأن الوحي هو الميزان الذي توزن به سائر المعارف⁽¹⁾.

2- التمييز بين الحقائق العلمية والنظريات التفسيرية:

من الأخطاء المنهجية الخلط بين النتائج التجريبية التي تثبتت بالملاحظة والاختبار، وبين التفسيرات الفلسفية التي تقدمها بعض المدارس النفسية لهذه النتائج.

1- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج1، ص. 78-88

فمثلاً، إذا أثبتت الدراسات أن التدريب على تنظيم الانفعالات يخفف من القلق، فإن هذه نتيجة تجريبية يمكن الإفادة منها، أما إذا فسرت مدرسة نفسية ذلك بأن الإنسان كائن مادي مستقل عن أي بعد روحي أو غيبي، فإن هذا التفسير لا يُقبل؛ لأنه يصادم أصول العقيدة الإسلامية.

ومن هنا فإن الباحث المسلم لا يرفض النتائج التجريبية النافعة لمجرد صدورها عن مدارس غربية، كما لا يقبل الخلفيات الفلسفية الملازمة لها دون نقد وتمحيص.

3- عدم اختزال الإيمان في آثاره النفسية:

من أبرز الإشكالات التي ظهرت في بعض الكتابات المعاصرة تفسير العبادات والعقائد من خلال آثارها النفسية أو الاجتماعية فقط، حتى أصبح بعض الباحثين يتحدث عن الصلاة أو الذكر أو الإيمان بالقدر بوصفها وسائل للاسترخاء أو تخفيف التوتر، مع إغفال حقيقتها التعبدية.

وهذا المنهج لا ينسجم مع التصور الإسلامي؛ لأن الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وسائر أعمال القلوب شرعت أولاً تحقيقاً للعبودية لله سبحانه، ثم تترتب عليها بعد ذلك آثارها النفسية والاجتماعية.

وقد نبه ابن القيم إلى أن القلب لا يطمئن إلا بالله تعالى، وأن كل طمأنينة تنفصل عن معرفة الله وعبادته فهي طمأنينة ناقصة، معرضة للزوال.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: 28.

وقال ابن القيم: « فليس للقلب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والإنابة إليه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإعراض عما سواه⁽¹⁾. »

4- الإفادة من الوسائل العلاجية المباحة دون التسليم بمنطلقاتها الفلسفية:

لا يمنع الإسلام من الاستفادة من الوسائل العلاجية أو الإرشادية التي ثبت نفعها، سواء كانت دوائية أو سلوكية أو معرفية، ما دامت خالية من المحاذير الشرعية. غير أن هذه الإفادة يجب أن تكون في إطار الرؤية الإسلامية، بحيث تُدمج الوسائل النافعة مع بناء إيماني صحيح، ولا تُتخذ بديلاً عن تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح.

وعليه فإن برامج العلاج المعرفي، وتنمية المرونة النفسية، وإدارة الضغوط، يمكن الإفادة من كثير من تقنياتها، بشرط ألا تُقدم على أنها مكتفية بذاتها في تفسير الإنسان أو تحقيق السعادة، وألا تُعارض ما دلت عليه النصوص الشرعية.

5- مراعاة التكامل بين الأسباب الشرعية والأسباب الكونية:

من خصائص المنهج الإسلامي أنه لا يقيم تعارضاً بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب، بل يجعلهما متلازمين. ومن ثم فإن الإيمان بالقدر لا يعني ترك العلاج النفسي أو الطبي، كما أن اللجوء إلى العلاج لا ينافي كمال التوكل، بل هو من تمام الامتثال لسنن الله في الكون. وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «تداواوا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء⁽²⁾.»

1- ابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص 16-23.

2- أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى، حديث رقم (3855) والترمذي، السنن، كتاب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، حديث رقم (2038)، وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا يدل على مشروعية الأخذ بالأسباب العلاجية، مع بقاء الاعتماد القلبي على الله تعالى، والإيمان بأن الشفاء بيده وحده .

فمن خلال ما سبق يتبين أن الفكر النفسي الحديث قد أسهم في تطوير أدوات مهمة لفهم بعض الظواهر النفسية، وفي بناء برامج علاجية أثبتت فائدتها في جوانب متعددة، إلا أن هذه الفائدة لا تستلزم التسليم بالمنطلقات الفلسفية التي قامت عليها بعض مدارس.

وترى الباحثة أن المنهج العقدي الصحيح يقوم على التفريق بين الوسائل والمرجعيات؛ فالوسائل العلاجية التي يثبت نفعها ولا تخالف الشريعة يمكن الاستفادة منها، أما المرجعية في تفسير الإنسان والنفس والغاية من الحياة، فهي للوحي وحده. ومن هنا فإن الإيمان بالقدر لا يمثل مجرد عنصر مساعد في تحقيق التوازن النفسي، بل هو الإطار العقدي الذي يمنح هذا التوازن معناه، ويضبط غايته، ويمنع انحرافه عن مقصود العبودية لله تعالى.

ويتميز التصور الإسلامي عن كثير من الاتجاهات النفسية المعاصرة بأنه لا يكتفي بتخفيف المعاناة أو تحسين التكيف، وإنما يسعى إلى إصلاح الإنسان في دنياه وآخره، من خلال بناء قلبه على التوحيد، وربطه بالله تعالى في السراء والضراء، وجعل ما يمر به من أحداث جزءاً من مسيرته التعبدية نحو الله. ولذلك فإن التوازن النفسي في الإسلام ليس غاية مستقلة، بل ثمرة من ثمار الإيمان الصحيح، ومن أبرز تجلياته الإيمان بالقدر خيره وشره.

خلص هذا المبحث إلى أن العلاقة بين الإيمان بالقدر والفكر النفسي الحديث ليست علاقة تعارض مطلق ولا توافق مطلق، وإنما هي علاقة تقويم وتمييز؛ إذ توجد جوانب يلتقي فيها الطرفان في بعض النتائج التطبيقية، كأهمية تقبل الواقع، والمرونة النفسية، وإعادة تفسير الأحداث الضاغطة،

غير أن الاختلاف الجوهرى يكمن في المرجعية التى تنطلق منها هذه المفاهيم، والغاية التى تسعى إلى تحقيقها.

وقد تبين أن العقيدة الإسلامية تقدم تصورًا أشمل للتوازن النفسى، إذ تربطه بالإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وحسن الظن بالله، والصبر، والرضا، والتوكل، وهى معانٍ لا يمكن تفسيرها تفسيرًا كاملاً فى إطار النماذج النفسية التجريبية وحدها. ومن ثم فإن الإفادة من علم النفس الحديث ينبغي أن تكون إفادةً منضبطةً بضوابط الشرع، مع المحافظة على استقلال التصور العقدي الإسلامى، وعدم إخضاعه للنظريات النفسية المتغيرة

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد تناولت هذه الدراسة أثر الإيمان بالقدر فى تحقيق التوازن النفسى فى ضوء الفكر النفسى الحديث، من خلال دراسة عقيدة تحليلية نقدية، استهدفت بيان حقيقة الإيمان بالقدر وآثاره النفسية، وتقويم بعض مفاهيم الفكر النفسى الحديث فى ضوء أصول العقيدة الإسلامية.

وقد بينت الدراسة أن الإيمان بالقدر ليس مجرد أصل من أصول الاعتقاد يتعلق بالإيمان بالغيب، بل هو أساس فى بناء الشخصية المؤمنة، ومنطلق فى تشكيل رؤيتها للكون والحياة والابتلاء، الأمر الذى ينعكس مباشرة على اتزانها النفسى، وقدرتها على مواجهة الأزمات والشدائد، والتعامل مع الضغوط الحياتية بروح من الرضا والتسليم والثقة بحكمة الله تعالى.

كما كشفت الدراسة عن أن عددًا من المعانى النفسية التى تترتب على الإيمان بالقدر، كقبول المقدور بعد وقوعه، والثبات عند الابتلاء، وإعادة

النظر في الحدث في ضوء حكمة الله تعالى، تمثل معاني متكاملة في البناء العقدي الإسلامي، ولا يصح فصلها عن أصلها الإيماني. وانتهت الدراسة إلى أن التصور الإسلامي يمتاز بشموله؛ إذ يجعل التوازن النفسي ثمرة لصحة الاعتقاد وسلامة القلب وتحقيق العبودية لله تعالى، ويجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل، وبين الصبر والرضا، وبين العمل قبل وقوع المقدور والتسليم بعد وقوعه.

ومن ثم فإن الإفادة من منجزات علم النفس الحديث ينبغي أن تكون إفادةً منضبطةً بالمرجعية الإسلامية، تميز بين الوسائل العلاجية المشروعة والمنطقات الفلسفية التي قد تتعارض مع أصول العقيدة، وبذلك يتحقق التكامل بين الخبرة الإنسانية الصحيحة وهداية الوحي.

النتائج:

أسفرت الدراسة عن النتائج الآتية:

1. أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وأصل عقدي مؤثر في بناء شخصية المسلم، وفي تشكيل نظرتة إلى الأحداث والابتلاءات.
2. أن مراتب القدر الأربع (العلم، والكتابة، والمشئنة، والخلق) تشكل منظومة عقدية متكاملة تُرسّخ اليقين بالله تعالى، وتورث الطمأنينة والثبات عند نزول المصائب.
3. أن التوازن النفسي في الإسلام يقوم على سلامة الاعتقاد، وصحة أعمال القلوب، وفي مقدمتها التوكل، والرضا، والصبر، وحسن الظن بالله تعالى، ولا يقتصر على مجرد التكيف مع الواقع.

4. أن النصوص الشرعية وأقوال علماء أهل السنة، ولا سيما ابن تيمية وابن القيم، تؤكد وجود علاقة وثيقة بين الإيمان بالقدر والاستقرار النفسي والطمأنينة القلبية.
5. أن المعاني المتصلة بقبول المقدور، والثبات عند الابتلاء، وتصحيح النظر إلى الأحداث، تجد أصولها المحكمة في الكتاب والسنة وأقوال أئمة أهل السنة، ولا يجوز فصلها عن مرجعيتها العقيدة.
6. أن المرجعية الإسلامية تفسر الأحداث في ضوء الإيمان بحكمة الله تعالى وعدله ورحمته، وتجمع بين الاعتراف بحدود علم الإنسان واليقين بكمال علم الله تعالى.
7. أن التوازن النفسي في الإسلام ليس غاية مستقلة، وإنما ثمرة للإيمان الصحيح، ومن ثم لا يجوز اختزال العقيدة في آثارها النفسية أو تفسيرها تفسيراً وظيفياً مجرداً.
8. أن الاستفادة من الوسائل النفسية والعلاجية المعاصرة مشروعة إذا ثبت نفعها، وكانت منضبطة بأحكام الشريعة، ولم تتضمن ما يخالف أصول العقيدة الإسلامية.
9. أن المنهج العقدي النقدي يميز بين الخبرة الإنسانية النافعة وبين التفسيرات التي تتعارض مع الوحي، ويجعل الكتاب والسنة المرجعية العليا في تقويم ما يستفاد منه.
10. أن بناء نموذج للتوازن النفسي ينطلق من الإيمان بالقدر يسهم في إثراء الدراسات البينية بين العقيدة الإسلامية وعلم النفس، ويفتح آفاقاً جديدة للبحث العلمي في هذا المجال.

التوصيات

في ضوء ما انتهت إليه الدراسة، توصي الباحثة بما يأتي:

1. تعزيز الدراسات العقدية البينية التي تربط بين أصول الإيمان والقضايا النفسية والاجتماعية المعاصرة.
2. العناية بتأصيل مفاهيم الصحة النفسية في ضوء الكتاب والسنة، وإبراز إسهامات علماء العقيدة في هذا المجال.
3. الاستفادة من الخبرة النفسية المعاصرة بعد تقويمها في ضوء المرجعية الإسلامية، مع التمييز بين الوسائل النافعة والمنطلقات الفكرية التي قد تتعارض مع أصول العقيدة.
4. إدراج موضوعات العلاقة بين العقيدة والصحة النفسية ضمن مقررات العقيدة والدراسات الإسلامية في الجامعات.
5. تشجيع إعداد برامج للإرشاد النفسي الإسلامي تستند إلى أصول الإيمان، ولا سيما الإيمان بالقدر، مع الاستفادة من الوسائل العلاجية الحديثة التي لا تتعارض مع الشريعة.
6. توجيه الباحثين إلى دراسة بقية أركان الإيمان وآثارها النفسية والاجتماعية، وفق منهج عقدي تحليلي نقدي.

مقترحات لبحوث مستقبلية:

تقترح الباحثة إجراء دراسات علمية متخصصة في الموضوعات الآتية:

1. الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالمرونة النفسية لدى طلاب الجامعات: دراسة ميدانية في ضوء العقيدة الإسلامية.
2. أثر التوكل على الله في خفض القلق النفسي: دراسة عقدية مقارنة.

3. الصحة النفسية في القرآن الكريم: دراسة تأصيلية في ضوء التفسير الموضوعي.

4. أعمال القلوب وأثرها في تحقيق الأمن النفسي: دراسة عقدية تحليلية.

5. النقد العقدي لمدارس علم النفس الإنساني والوجودي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.

2. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا، د.ط، د.ت.

3. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط2، 1411هـ.

4. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د.ط، 1416هـ.

5. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

6. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. زاد المعاد في هدي خير العباد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27، 1415هـ.

7. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. تحقيق: زاهر سالم بلفقيه. دار عطاءات العلم، الرياض، ط1، 1440هـ.
8. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، بإشراف بكر بن عبد الله أبو زيد. دار عطاءات العلم، الرياض، ط1، 1440هـ.
9. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1416هـ.
10. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة، الرياض، ط2، 1420هـ.
11. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ط، د.ت.
12. ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط13، 1414هـ.
13. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري). تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ.
14. الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع (سنن الترمذي). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1395هـ.

15. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ.
16. الطحاوي، أحمد بن محمد. شرح العقيدة الطحاوية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين. المكتب الإسلامي، بيروت، ط1.
17. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ.
18. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ.
19. ملكاوي، مصطفى. علم النفس والإيمان. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1.
20. مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
21. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.